

الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) وعالمية الرسالة



الإمام موسى الكاظم (عليه السلام) إذا قرأناه في تراثه كلاً، فإننا نجد أنّه ككلّ أئمّة أهل البيت (عليهم السلام)، لم يترك جانباً من جوانب حركة الإسلام إلا وأوله اهتماماً، سواء في عقل الإنسان بما يريد أن يربّي للإنسان عقله، أو في قلبه بما يريد أن يربّي به قلبه، أو في سلوكيات حياته بما يريد أن يعمّق له الخطّ المستقيم في حركته في الحياة.

هذا الإمام الذي لا بدّ للناس من أن يقرأوه في هذا الأُفق الواسع الممتدّ في عالم المعرفة، والذي يربط الإنسان بالإنسان، ويربط الإنسان بالإنسان، ويربط الإنسان بمسؤوليته عن الحياة كلّها، فلا يكون مجرد شخص يعيش في سجن ذاته، ولكنه يشعر بأنّه لا بدّ من أن يعيش في حجم العالم كلّ، لينمّي طاقاته بالمستوى الذي يستطيع أن يكون فيه عالمياً، لأنّ الله تعالى أرادنا أن نفتدي برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في قوله: (لَقَدْ كُنَّا لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ)، وقد كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في رسالته إنسانياً عالمياً.. كان يفكّر في الناس كلّهم، وكان يريد أن يؤسّم العالم كلّ.

ولا بدّ لكلّ مسلم ومسلمة من أن يعيش هذا الأُفق، فلا يحبس نفسه في ذاته ولا في عائلته ولا في وطنه ولا في قوميته، بل يعيش إنسانيته في معنى الإنسان (يَتَأَيَّسُ الْإِنْسَانُ إِلَهًا خَلَقَنَّاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلَنَّاكُمْ سُجُودًا وَقَائِلًا لِتَعَارَفُوا) (الحجرات/ 13). فالله سبحانه وتعالى لا يلغي خصوصياتنا (إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقَاتُكُمْ) (الحجرات/ 13). وتبقى التقوى هي الأساس الذي يتفاضل الناس فيه.

هذا الإمام الذي عاش رحابة الأُفق في خلقه، فكان يحسن إلى من أساء إليه، ويعفو عمّن اعتدى عليه، ويتّسع صدره حتى ليحضن أعداءه، ليعلّمهم كيف يحبّ الإنسان الإنسان، بقطع النظر عن التعقيدات التي يمكن أن تتحرّك هنا وهناك. كان (عليه السلام) يواجه الغيظ من كلّ الذين لا يحترمون إنسانية الإنسان، ومن كلّ المستكبرين في الأرض، والذين يعيشون على أساس الحقد والعداوة والبغضاء، أولئك

الذين لا يعرفون معنى الحبّ، ولذلك فهم يعملون على أساس أن ينفّسوا عن حقدّهم ضدّ الطيّرين، لكنّ الإمام (عليه السلام) كان يكظم غيظه، فلم يتحرّك بردّ فعل سلبي، بل كان لديه فعل من نوع آخر، فلقد كان القوم يسيئون إليه، وكان يحاول أن يعطيهم درساً في معنى الإحسان، ودرساً في معنى العفو، ولذلك سُمّي «كاظم الغيظ».

كان الإنسان الذي عاش مع الله سبحانه وتعالى بأعلى الدرجات، فقد كان الله حاضراً في عقله، فليس في عقله مكان إلا الله، وكان الله حاضراً في قلبه، فقلبه كلاًه عرشاً لله، وكان الله حاضراً في حياته كلاًها، فكانت حياته للرسالة كلاًها، وكان يعيش اللذة باللقاء بالله، ولذلك كان يطيل السجود، وكانت سجدة تمتدّ من الصباح إلى الزوال، ومن الزوال إلى الغروب، ولم تكن سجدة تقليدية، ولكنّها كانت سجدة يرتفع من خلالها بروحه إلى الله عزّ وجلّ، فيناجيه ويلبّيه ويدعوه ويعطيه الحبّ كلاًه، فكان يقول فيما مضمونه: «اللّهُمَّ إِنِّي كُنتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تَفْرِّغَنِي لِعِبَادَتِكَ، وَقَدْ فَعَلْتَ فَلَكَ الْحَمْدُ». وبذلك فإنّ الله كان العاشق لله.. يحبّه.. يناجيه.. يتحدّث معه، ويتواضع معه، وكان يكرّر في سجوده: «اللّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ الرَّاحَةَ عِنْدَ الْمَوْتِ، وَالْعَفْوَ عِنْدَ الْحِسَابِ». وليس هناك ذنب يستغفر الله منه، ولكنّه تواضع لله، بحيث يجلس بين يديه ليعيش كما يعيش العبد أمام سيّده، لأنّ عبودية الإمام (عليه السلام) كعبودية آبائه وأبنائه، ارتفعت إلى المستوى الذي اندفع فيه مع الله في كلّ معاني الذوبان بالله. ولأنّ الله أحبّ الله في أعلى درجات الحبّ، وأطاعه في أرحب مواقع الطاعة، وجاهد في الله حقّ جهاده بكلّ معاني كلمة الجهاد: بالكلمة والموقف والمجابهة، فقد انطلق ليتحدّى لينهض بالرسالة ويزرعها على مستوى الإنسانية.